محمد على
أميّ رفيع المعرفة
بقلم الشاعر الايطالى الكبير(*)
اونجارتى

ترجمة وتقديم
عادل السيوى

فى صيف عام ١٩٣١م عاد الشاعر الإيطالى الكبير أونجارتى إلى الإسكندرية. رجع إلى مصر التى ولد فيها وعاش على أرضها حتى بلغ الرابعة والعشرين. فقد ولد بضاحية محرم بك بالإسكندرية سنة ١٨٨٨م. وكانت آنذاك قرية صغيرة بالقرب من الإسكندرية المدينة. وسافر إلى إيطاليا فى عام ١٩١٢م ليدرس القانون.

جاء اونجارتى إلى مصر مشحوناً بمشاعر متضاربة. وقد حرص على تسجيل هذه الرحلة وأصدرها فى كتاب رائع تحت عنوان "الصحراء"، دفاتر مصرية". وفيه تتقاطع ذكرياته الشخصية. بالوقائع والتاريخ فمصر هى الأرض التى شكلت تجربته. وينتمى فى أعماقه إليها. الا أن روحه القلقه وولعه بثقافة إيطاليا وأوربا بشكل عام. ووجدانه الكوزموبوليتانى(**) وضعاه فى موقف المشاهد المتأمل أيضا لواقع يعيشه وينظر إليه من مسافة ما تمنع الانصهار وتحجم الحماس، يلتقى اونجارتى فى كتابه عن مصر بشخصيات قلقه، عظيمه، وساحرة: كليوباترا ،

(*) فصل من كتاب : (Guiseppe Ungaretti , il Deserto Quaderno. Egiziano , 1931, Oscar Mondadori , 1996 .)

عنوان الفصل الخاص بمحمد على (Analfabeta che la sa lunga , pp. 47-55)

(**) كلمة يونانية تعنى مدينة مفتوحة على العالم تتعدد فيها الأجناس واللغات والثقافات .

obeikan.com

الإسكندر، الشحاذ، الصوفى، مريض الجزام ومحمد على. يجوس فى الأماكن التى استدعتها الذاكره البعيدة. حقول القطن. شاطئ الإسكندرية الصحراء. المقهى البلدى.

يكتب اونجارتى "سأذهب إلى مصر. حيث ولدت فى ليلة عاصفة ، أعتقد أنه كان إعلان منذ البداية على أن الزمان(*) لن يكون رفيقاً بى أبداً". وعندما ترسو السفينة على شاطئ الإسكندرية يقول "كم هى فوضوية هذه المدينة. كل هذه اللغات واللهجات التى تتقاطع، العلامات والإشارات إيطاليا. فرنسا. العرب. اليونان. الأرمن. الحوانيت. الطعوم. الروائح... أى ساحر ذلك الذى كان يمرح باختراع هذا المكان...؟ لا أعرف لماذا يغامرنى ندم ما لأننى أعشق هذه المدينة".

ورغم ترحال اونجارتى عبر القارات واختلاطه بشعوب كثيرة، الا أن التجربة المصرية ظلت صاحبة البصمة الأكبر على حياته. نظراً لخصوصيتها الشديدة، فلم يكن شاعرنا محصنا داخل أسوار أسرة عريقة متميزة. أو فى إطار ثقافة كولونيالية(**) فقد مات أبوه وهو يعمل فى حفر قناة السويس وتركه صغيراً. وكانت أمه تملك مخبزاً صغيراً وعندما شب شاعرنا . كانت روحه اليقظة والقلقة تدفعه للانخراط فى حوارات مع الشعراء الثوريين اليساريين والفوضويين، فشارك معهم فى تحرير بحارة المدرعة الشهيرة "بتومكين" عند رسوها فى ميناء الإسكندرية. وأثناء ترحيل البحارة المتهمين بالعصيان. أوقف اونجارتى ورفاقه القطار وسلعدوا البحارة على الهرب من السلطات الروسية. وحوكم اونجارتى على فعلته، وكان انتحار صديقه المصرى الذى يدين له بكثير من معارفه. والذى انتقل معه إلى باريس وهو الشاب "محمد شهاب " الذى نعرف القليل عنه . كان هذا الانتحار نقطة

(*) ..... تعنى فى الإيطالية الزمن والمناخ فى نفس الوقت وقد لعب اونجارتى على ازدواج المعنى .

(**) ثقافات الأقليات الأجنبية المستعمرة ، أو صاحبة الامتيازات فى المستعمرات .

تحول فى حياة أونجارتى. وفى طريقة نظره للحياة. ولا مجال لدينا للأسهاب فى سيرة هذا الشاعر العظيم . والذى ترك بصمته على كافة الشعراء المهتمين بالاقتصاد اللفظى والابتعاد عن الاستخدام الزائد للصورة الشعرية أو للموسيقى أو حتى لبلاغة الكلمة المفردة. فى هذا الكتاب يراعى اونجارتى أن القارئ ليس بالضرورة مسلحاً بمعلومات كافية عن مصر ولذا فهو حريص على تقديم معلومات أساسية واستخدام لغة صحفية فيها طابع الوصف ويعمد إلى التأكيد على الأُطُر الكبرى تاريخياً وسياسياً ويرى من ذلك المنظور أن صعود محمد على وبروز دوره كقائد محنك جاء نتيجة لقدرته الفذة على قراءة الصراعات على كافة مستوياتها سواء بين طوائف وجماعات محلية أو بين دول كبرى أو بين إمبراطورية شرقية متسعه وتحالفات غربية تحمل بدورها وبداخلها تناقضاتها الكبرى. أيضاً.

كما أنه يشير إلى قدرة محمد على الفذة أيضاً على قراءة البشر وخبرته بطبيعتهم ودواخلهم يكشف هذا النص رغم بساطته عن تقدير عميق للجوانب الفردية فى عمليات الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى. وحماس بالغ للقائد الكاريزمى وهى مناطق أثيرة لدى بعض المفكرين الغربيين تصاعدت بقوة فى النصف الأول من هذا القرن وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، ومع تزايد الشكوك حول تجربة الليبرالية والمجتمعات المفتوحة. وتجسدت هذه التوجهات فى الحماس والتعاطف مع تجارب ذات طابع شمولى فى بلاد كروسيا بل وفى الغرب نفسه مع تصاعد النازية والفاشية، وكان أكثر أشكالها وضوحاً التضخيم الأسطورى لملكات القائد الفرد: ستالين. موسولينى. هتلر. سالازار ثم اتاتورك . فرانكو. وماو.. الخ. من هذا المنظور يكتب اونجارتى أيضاً، وهذه الثنائية هى الانفصامية التى شهدها الواقع الأوربى فى الجمع أحياناً ما بين توجهات فكرية وفنية ثورية بل وطليعية أحياناً : كالمستقبلية مثلا" وتبنى أشكالاً ومواقف سياسية مضادة كالفاشية والنازية، ويكفى رصد طابور طويل من الشعراء والفلاسفة والفنانين الذين لا يمكن التعامل معهم

كاستثناء. .وإنما كتناقض حقيقى داخل التجربة الغربية ذاتها، وهذا مقام آخر يكفى هنا فقط الإشارة إليه ونحن نتحدث عن اونجارتى ومحمد على معاً، يرى اونجارتى أن محمد على قد وجد مصر فى حالة من الفوضى الكاملة. وتمكن بقدراته الفذة أن يرقى بها إلى مصاف الدول الكبرى ، ولا يهتم اونجارتى بالنظر إلى عناصر إيجابية فى الواقع نفسه ولا إلى الجهد الذى بذله المصريون لتجاوز أزمتهم ولا يلتفت إلى حركة عارمة التقت طموحاتها وجهودها الحقيقين مع إمكانات هائلة فى قائد عظيم وفى لحظة التحام حقيقى .

ما يخفف من كل هذا أن اونجاتى أراد بالفعل أن يقدم لنا صورة ذلك الجانب الشخصى ، وتلك القدرة على الحركة وسط أمواج هائلة من التناقضات وفى النص أيضاً ظلال استشراقية خجولة ولكنها ممتدة داخله وفى ثناياه. ويمكن لمسها بوضوح فى التأكيد على الفروق (العرقية) فالمشرق يغير مواقفه ويحول اتجاهاته بسرعة لا منطقية. والمصريون يكرهون القانون. ولسنا هنا بصدد محاكمة الفكر الاستشراقى ولا مراجعة ملاحظات اونجارتى، ولكن القانون هنا له تصور واحد، ولا يسأل اونجارتى نفسه عن السبب الذى يؤدى إلى هذا الموقف منه. كما لو كان أحد سمات الطبيعة المصرية الثابتة، وإذا كان الأمر كذلك. فلماذا يحترم المصريون إذن القانون الذى يخصهم ومن داخل تجربتهم ومحاكمهم الشعبية والتى تصدر توصيات علنية وملزمة دون اللجوء إلى العنف. [وهو أداء أعلى من الردع] وتطل الروح الاستشراقية بعد ذلك أيضاً من خلال التبجيل العارم لتلك المؤسسات الحديثة ذات الكفاءة والتى تملك المعلومة والرسوخ، إنها فى حقيقة الأمر احتفالية الغرب بإعادة خلق حضارته على أراضى الآخرين ، كان اونجارتى لا يهتم بأى مؤسسة محلية أو شعبية ذات طبيعة مغايرة لما يعرفه .

سيقدم لنا النص محمد على كقائد استثنائى يقود مجتمع متخلف إلى الحداثة ، وعلى نفس الدرب سيسير اسماعيل ثم فؤاد . وليس صدفة التوقف فقط أمام هؤلاء .

وهو المنظور الوحيد المعتمد للنظر إلى تلك الرحلة من تأسيس الدولة والعائلة معاً وبالرغم من تلك الملاحظات العابرة، وبالسماح له أيضاً بالدفاع عن نظام الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، الا أن قامة اونجارتى الشاعر الكبير تتسرب عبر تلك الجمل القصيرة وهى تحاول أن ترسم لقارئ ايطالى بسيط لوحة معقدة من الإحداث. وتصوراً دقيقاً لقائد ملهم صاحب رؤية نافذة مثل محمد على.

obeikan.com

"النص"

أمى رفيع المعرفة

• اونجارتى

1931

ولد محمد على سنة ١٧٦٩ بقولة، فى بلده لا تختلف كثيراً عن تلك المدن الصغيرة التى برزت على إطلال الإمبراطورية المقدونية القديمة، والتى شهدت منذ زمان بعيد ميلاد الإسكندر المقدونى.

وعندما حل فى أرض مصر، وجد هذا الجندى المغامر شعباً مطحوناً، وبلداً ممزقاً، تتبدد قوته على يد كبار ملاك الأراضى، وقد تمكن من النهوض بهذا البلد والوصول به إلى منزلة من التماسك والرفاهية والنظام، مما مكنه من أن يقول بثقة فى شيخوخته "ليس هناك بلد فى العالم أجمع، يأمن فيه الإنسان مصرياً كان أو أجنبياً على نفسه، ويحترم كإنسان. أكثر من بلدى".

لم يكن محمد على ملماً بالكتابة، ولكنه تعلم القراءة فى الأربعين بجهد شديد. ولكن عزيمته ومنهجه فى التفكير. وصلا به إلى تحقيق أعلى درجات التحضر والرهافة.

تمتع محمد على ببصيرة نافذة. وخبرات طويلة بطبائع الرجال، وقادته الصفقات الضخمة التى عقدها فى حياته للاقتناع بأن الجرأة والصرامة لا تنفيان التعاطف والنظر بعين الاعتبار إلى عذابات الآخرين، ولا تعنى إهدار حقوقهم. وهى القاعدة الاجتماعية التى يجب أن تتوفر لأى جماعة إنسانية قدر لها الصعود والرفعة.

وفد رجلنا إلى مصر فى سنة ١٨٠١م كضابط تركى ليشارك فى القتال ضد

الفرنسيين، وفى يونيه من نفس العام اغتيل القائد الفرنسى كليبر وفى سبتمبر ١٨٠١ كان سادة الموقف انذاك. هم الإنجليز وبعد امتلاكهم لزمام الأبيض المتوسط كانوا قد تمكنوا فى مالطا من أجبار الفرنسيين على الجلاء عن مصر. برز دور محمد على فى المعارك مما دعى والى مصر "خسرو" باشا التركى لترقيته إلى رتبة بمباشى أى عقيد. رئيسا للفرقة الالبانية "الارناؤط". كما أسندت إليه مهمة تصفية النزاعات التى انفجرت آنذاك بين الأتراك والمماليك.

وبدهاء نادر تمكن محمد على من استقطاب عدد كبير من قادة المماليك، وضمهم إلى قواته. بل واستطاع بالاعتماد عليهم أن يطيح "بخسرو" نفسه، مما أفسح الطريق لمبايعته والياً على مصر وحصل على موافقة الباب العالى على هذا الاختيار ولكن الاتساع المفاجئ لسلطات محمد على أثار المماليك وأدى إلى تصاعد الغضب لدى أصحاب النفوذ القديم. فكان أن تراجع الإنجليز عن قرارهم الذى اتخذوه فى ١٨٠٣م لترك مصر. وقرروا العودة والاعتماد على بعض الأعوان من البكوات والملاك – وهم أدنى من أى ثقة، ويدافعون عن مصالحهم بوحشية بالغة – قرر الإنجليز العودة فى ١٨٠٧م وقاد أسطولهم الادميرال فريزر. لم تدم الحملة طويلاً فقد منيت بهزيمتين سريعتين فى الإسكندرية ورشيد. مما جعل فريزر يقرر الفرار إلى عرض البحر.

استوعب محمد على جيداً الخطر الذى يمثله المماليك بمؤمراتهم وعصيانهم وغدرهم. فدعاهم إلى حفلة ودية بالقلعة فى مارس ١٨١١م، وفى لحظة حاسمة اطبقت السيوف على الرقاب وطارت الرؤوس وفقا للمنهج الشرقى فى التخلص من الأعداء والخصوم والذى جرح وعينا كغربيين بالقانون بل والذى كان يؤرق محمد على نفسه، وهو الرجل الذى لم يهمل يوماً واحداً فى ترقية وتطوير ادائه على المستوى الإنسانى.

فى جميع الأحوال كانت تلك هى خاتمة عصر، انتهى المماليك . وبدأت رحلة تحرر مصر، لم يبك الكثيرون على المماليك. فقد ساد النزاع والفوضى آخر عهودهم وكان بؤس الناس عظيما فى ظلهم فصاروا بذلك اقرب إلى التصور الساخر لهم والذى تحمله كلمة "مملوك" فى القاموس الإيطالى كخليط من الشراسة والجمود والحماقة.

كان المماليك، لمن لا يعرف، ووفقاً لمدلول الكلمة نفسها عبيداً توافدوا على مصر من آسيا وجورجيا إلى جانب الجراكسة. وقد تم إعدادهم عسكريا ليصبحوا حرسا خاصاً لأصحاب السلطة والثروة من سلالة صلاح الدين. والذين شكلوا العمود الفقرى لجيشه وصعد المماليك إلى عرش مصر عندما صعد "عز الدين ايبك" عرش توران شاه آخر سلطان ايوبى وحكم مصر فى ١٢٥٠م وظل المماليك يتداولون عرشها حتى عام ١٥١٧م. والذى تحولت مصر فيه إلى باشلاق عثمانى. ورغم خضوع مصر لحكم الاتراك الا أن سلطات المماليك فى البلاد ظلت قائمة إلى حد بعيد فهم ولاه الأقاليم الأربعة والعشرين التى تقسم مصر. ولم يكن الباشا والى مصر كلها بقادر على اتخاذ أى قرار ما لم يحصل على موافقة أمراء هذه الأقاليم كلها. وكان خسرو باشا الذى خلعه محمد على نموذجاً لعجز صاحب القرار وتحوله إلى أداة فى يد المماليك. كان محمد على يحلم بتأسيس إمبراطورية واسعة. وادرك منذ البداية أن مصر فى حاجة ملحة لميناء حديث فشرع فى إنعاش الإسكندرية، والتى كانت قد تدهورت إلى درجة أن سكانها آنذاك لم يتعدوا خمسة أو ستة ألاف شخص، وهى الآن تستوعب مليون مواطن، وشق إليها ترعة المحمودية التى تأخذ الماء من فرع رشيد بالدلتا. وكان اتساعها ٣٠ متر وتمتد بطول ٧٨ كيلو متر، وهكذا وصلت مياه النيل إلى الإسكندرية، وبسط سيطرته فى الجنوب على كردفان والنوبة. وأسس الخرطوم عاصمة السودان المصرية فى المدة ١٨٢١م إلى ١٨٢٣م وعند هذا الحد بدأ الصراع يشتد مع الباب العالى بالاستانه، وسيراً على درب

نابوليون بدأ محمد على فى انتزاع سلطة الأتراك قطعة فقطعة، وكان لديه جنرال عبقرى لتنفيذ المهمة وهو ابنه بالتبنى إبراهيم باشا، الذى سرعان ما انتزع سوريا وجبال طوروس . ثم توغل فى آسيا الصغرى نحو الأستانة، وكان ذلك كافياً للسلطان محمود الثانى كى يمد يده إلى أوربا طالباً النجدة. لمواجهة هذا الخصم العنيد.

طلب محمد على مد سلطانه إلى سوريا وما بين النهرين وكان يريد بغداد بالتحديد ليفتح طريق التجارة مع الهند. ولما وقع صلح كوتاهيه Kutarich حصل من الباب العالى على ما أراد سوريا وطوروس ومضيق اضنه شمالاً إلى الخرطوم جنوباً. وذلك فى ٥ مايو ١٨٨٣م كانت هذه الحدود كافية لخلق امبراطورية متسقة ولكن محمد على يطمع أيضاً فى توريث سلطانه. ولكن انجلترا انزعجت كثيراً من حجم الطموحات، ورأت فى نجاحات محمد على تكراراً للخطط النابوليونية التى نجحت فى تدمير هيبتها ونفوذها من قبل. وهو ما كانت الدبلوماسية الفرنسية تعيه جيداً. فى ذلك الوقت كانت انجلترا منهمكة فى تأمين طرق الملاحة البحرية بكل الوسائل وكانت تسعى عبر اتفاق "فينا" لانتزاع اعتراف رسمى بالسيطرة على الأبيض المتوسط. وجبل طارق ومالطه. وجزر البحر الايونى، فى الوقت الذى بسطت فيه سيطرتها على رأس الرجاء الصالح واحتلت مضيق عدن ورغم أنها كانت قد احكمت بالفعل تأمين طرق التجارة وخطوط الاتصال البحرى بينها والشرق بأكمله. إلا أن هذا لم يكن كافياً لتأكيد الشعور بالاستقرار. ولذا فقد رأت أن تدفع السلطان محمود لبدء رحلة من العداء والحروب ضد الجيش المصرى. وكان إبراهيم يواصل زحفه وطرده للاتراك حتى دفعهم للهروب إلى "نزيب" Nezib واقترب بذلك من أبواب اسطنبول مات السلطان محمود . وكان خلفه جاهزاً للتصالح ومهيأ لتقديم تنازلات كبيرة. ولكن اللورد بالمرستون Palmerston. المراقب العميق للأزمة تمكن بدون علم فرنسا فى ١٥ يوليه ١٨٤٠م من توقيع

معاهدة لندن، مع ممثلى النمسا وبروسيا وروسيا، والتى تتعهد بموجبها القوى الأربع العظمى آنذاك بالحفاظ على وحدة واستقلال وسلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية. ويالها من صفقة دبلوماسية بارعة. لقد عزلت فرنسا عن مسألة الشرق. وخرجت من الاوركسترا الأوروبى وبدأ الحديث عن الحرب يعلو فى فرنسا ذاتها. ولكن محمد على كان ينوى الا يتراجع وأعلن المقاومة. وفى المقابل كانت كل المساعى تبذل لتجميع عناصر لزعزعته، وما أسهل انقلاب الروح الشرقية. استفاد أعداء محمد على من تصاعد حالات الغضب فى سوريا. وبدأ الهجوم المضاد. الذى أجبر إبراهيم على التراجع بقوته ودفع محمد على للقبول بدور "حاتى شريف" من أول يونيو ١٨٤١م. وهى منحه يسمح له بها السلطان نقل سلطاته إلى أبنائه وأحفاده. أى حق توريث عرشه مقابل خراج سنوى محدد وأن يتنازل فى المقابل عن الأسطول ويلتزم بألا يزيد عدد أفراد جيشه عن ١٨٠٠٠ مقاتل وهذا هو تاريخ البداية لأسرة محمد على التى لازالت تهيمن على مصر إلى الآن. لم يكن مؤسس الأسرة مجرد قائد عسكرى كبير. فإليه يرجع الفضل فى إنشاء مؤسسات تعليمية مختلفة المستويات والاهتمامات، وهو الذى أدخل زراعة القطن إلى مصر وبمبادره منه تم شق شبكة شديدة التعقيد من الترع والمصارف فى الدلتا والفيوم. مما أعاد ازدهار الزراعة مرة أخرى فى هذا البلد العريق. وفى عصره برز إلى النور علم المصريات. وكانت حملته العبقرية على السودان تمثل تجسيداً لأفكاره الجوهرية فاستقلال مصر بمياهها أمر جوهرى. وكان ذلك يتطلب من وجهه نظره السيطرة على مسار النيل من منابعه الافريقية حتى مصبه. وفتحت جهود محمد على لتحقيق هذا الهدف الطريق لاكتشاف ذلك الجزء المجهول من القارة الأفريقية كان محمد على راعيا للمعرفة والعلوم. ولا يقاربه فى ذلك وقد يتجاوزه أحياناً. الا "إسماعيل" الذى صعد إلى عرش مصر فى ١٨٦٣ وكان أول من ينال لقب خديوى فى العائله. وهو لقب يعنى نائب السلطان العالى فى مصر. وقد نال إسماعيل هذا اللقب فى عام

١٨٦٧م بعد ٤ سنوات من توليه السلطة، ولم يكتف برعاية الثقافة والعلوم. وإنما كان يرغب فى أن تصبح القاهرة عاصمة كبرى من عواصم الدنيا.فبنى شبكة للسكك الحديدية . والحدائق. والقصور. وبنى مسرح الأوبرا الذى كلف فيردى بتأليف رائعته عايده الافتتاحية. كان نبوغ إسماعيل وتجسد عظمته مرتبطا بحقائق سياسة استثنائية. فقد فتحت مصر قناة السويس للملاحة فى عام ١٨٦٩م وكانت أسهمها وعددها٤٠٠,٠٠٠ مملوكة للشركة الدولية صاحبة الامتياز. أما من قبل رأسماليين فرنسيين أو من قبل الخديوى نفسه نيابة عن المصريين. ومن خلال هذه السيطرة على هذا الممر أصبحت فرنسا المالك الحقيقى لطريق التجارة البحرية إلى الهند. وهنا علينا أن نتريث قليلا. لإن انفاق إسماعيل على مظاهر عظمته وضعه فى موقف مالى حرج. مما أضطره لطرح أسهم مصر ١٧٧,٠٠٠ سهم للبيع لرد الديون ولكن فرنسا رفضت العرض.

نجح أحد الصحفيين ، ويستحق أن يذكر اسمه وهو فردريك جرين وود Frederick Greenwood فى نقل اسرار الصفقة إلى اللورد دربى Derby والذى كان متردداً . أما ديزرائيلى فقد كان متحمساً لاتمام الصفقة. ولكن البرلمان كان مغلقاً وبلا اعتمادات كيف يمكن اذن سحب ٤ مليون جنيه استرلينى من الميزانية الإنجليزية لشراء حصة مصر..؟ وفى نفس الوقت كان المليونير اليهودى روتشيلد كان جاهزاً لاقراضه المبلغ كله. وهكذا عرض دزرائيلى على الملكة فيكتوريا حقيبة الأسهم. وهى الملكه التى نالت فى ١٨٨٥م لقب امبراطورة الهند. ورغم شراء حصة مصر الا أن قناة السويس ظلت شوكة مؤلمة فى عين الإنجليز ، فى ١٨٨٢م احتلت انجلترا مصر. ولم تتوقف فرنسا عن الاعتراض على هذا التدخل الا بعد عقد اتفاق فرنسى انجليزى فى ٨ ابريل ١٩٠٤م، وفى أعقاب اتفاق سيفر ومعاهدة لوزان التى حلت محله لم يعد لتركيا أى صوت مسموع فى أمور مصر.

برزت المحاكم المختلطة منذ ما يقرب على خمسين عاما وكانت مصر قد

عاصرت هذه التجربة من قبل فى عصور البطالمة. وهى نظام للقضاء يحل محل المحاكم الأجنبية التى كانت تؤكد الامتيازات. ولا يجب أن ننظر إلى النسق القانونى السابق بوصفه شكلاً يفرض قسراً واجبارياً. كمؤسسة يصنعها القوى ويفرضها على الأضعف. لأنها كانت تنطلق أساساً من مبدأ حماية حقوق الاقليات. وكان ممثل الادعاء يطلب تطبيق العدالة من كافة المحلفين والقضاه المجتمعين. كشرط لتنفيذ الحكم، والمحاكم المختلطة تضطلع بالنظر فى القضايا التى تخضع لإحكام القانون المدنى والتجارى والتى يكون طرفيها مصريين وأجانب. أو النزاعات القانونية بين أطراف من جنسيات مختلفة. فتشكل هيئة المحكمة من قضاة مصريين إلى جانب قضاة من كافة الجنسيات الأوربية والجاليات الكبيرة ذات المصالح الملموسة. فإذا لم أخطئ التقدير تستثمر إيطاليا وحدها ما يعادل ٥ مليار ليرة إيطالية فى مصر.

وللمحاكم المختلطة وظيفة أخلاقية وتربوية عظيمة الشأن. ورغم مرور نصف قرن على إنشاء هذه المحاكم الا أن تنفيذ أحكامها ليس أمراً سهلاً. فهناك بعض الاختلافات فى تسجيل الأسماء العربية تمتع أحياناً من تنفيذ الحكم فقد تجد فى قرية واحدة أكثر من عشرة أشخاص تحت اسم محمد احمد. ولازالت عمليات التوثيق فى السجل المدنى والتعداد. تتم بشكل تقريبى ولنأخذ مثالاً آخر قد يقع – وهو مثال حدث بالفعل – يحدث أن يمتثل المتهم لمصادرة أملاكه أو بضاعته. فتصادر ولكن الحافلة التى تقلها تنقلب بشكل مريب فى الطريق وتختفى هذه البضاعة. ويبدأ المتهم بعدها بمطالبة الدولة بالتعويض عنها بعد أن يكون قد استعادها بالفعل وأخفاها فى مكان آمن لازال أمام هذا البلد طريق طويل. يجب أن تقطعه لكى يستقر مفهوم "الحق" ومفهوم "القانون"، فشراهة التملك هنا تشمل كافة المستويات الاجتماعية من أبسط الناس إلى أعظمهم منزلة. ورغم ذلك فليست هناك قناعة سائدة بالاحتياج إلى قانون قوى وراسخ لتأكيد هذه الملكية. ولكى يستقر ويتزن الحد بين ما هو لى وما هو لك. ولن يتم ذلك الا باحترام القانون. يجب أن يدرك الجميع هنا أن القانون لا

يمس ولا يمكن تجاوزه وتعديله الا باتفاق جماعى علنى. عندما يصطدم أساساً بمفهوم العدالة.

فالمصريون يعتقدون بأن ما تملكه، ما هو لك، هو كل ما استطعت أن تأخذه وأن تحتفظ به سواء بالمحبة أو بالقوة. ولذا فإننا نجدهم أحياناً يتخلون بسهولة شديدة عن ما يملكون دون مراجعات كثيرة.. فالاحتراس والتخطيط للمستقبل ليس من جوانب قوة هذا الشعب. يبدو أن البرلمان الفرنسى قد اعترض على طبيعة هذه المحاكم التى نشأت وقت أن كانت مصر ملكاً مقتسماً بين الإنجليز والفرنسيين. وكان كل طرف من المالكين ينظر شزرا للطرف الآخر. كانت فرنسا ترفض منح الأجانب الآخرين نفس الفرصة للمشاركة والتأثير فى الأحكام. وهذا أمر هام إذ كان ادركنا استحالة فرض قانون أو ضريبة الا بعد موافقة الهيئة العليا لمحكمة الاستئناف المختلطة. وعند صدور الحكم من هذه الهيئة يصبح نافذاً ويجب تطبيقه سواء على المصريين أو الأجانب. ويبدو أن الخديوى قد افتتح هذه المحاكم قبل أن يتبلور الموقف الفرنسى حيالها ويتم صياغته بشكل مؤثر.

اليوم اختفى لقب الخديوى. وأصبح على رأس مصر ملكاً. ولكنه ملك لا يحسد على موقعه. الان يحكم مصر الملك فؤاد بن اسماعيل وهو رجل مستنير. تم تربيته فى ايطاليا وبالتحديد فى المدرسة العسكرية بتورينو حيث قضى شبابه وإذا ما صادف الملك للآن من يجاذبه الحديث بلهجة أهل البيمونت الايطالية فإنه يسعد بذلك سعادة بالغة. وهو بدوره شغوف بالمعرفة . وقد افتتح وهو لا يزال أميراً الجامعة المصرية وذلك فى عام ١٩٠٨م فبدات رحلة الدراسات العليا فى هذا البلد.

ومصر بلد لا تنقصه المعاهد ومراكز البحث المتخصصة فلديه "الجمعية الجغرافية"، "المعهد المصرى" وأسسه بونابرت ليجمع أساتذة وباحثين من كافة الدول ويمتلك مكتبة بالغة الثراء. وذلك بالإضافة إلى "معهد الآثار" و"الجمعية الزراعية"،

ويرجع الفضل للملك فؤاد فى تنشيط فاعليات هذه المراكز. وهو صاحب قرار إنشاء الجمعية الاقتصادية وهى جمعية تعنى بالاقتصاد السياسى والإحصـــاء والتشـــريع وتصدر دورية بحثيه من أفضل الدوريات من حيث حجم المعلومات ودقتها. وإلـــى هذا الملك أيضاً يرجع الفضل فى إنشاء معهد الآثار الشرقية لدراسة ترميم الآثـــار العربية ولدراسة الموسيقى الشرقية قد أسس مدارس الفنون الجميلة. وشجع عمليـات التنقيب عن الآثار. وتطوير المكتبات وبالإضافة إلى ولع هذا الملك بالبحث والعلـــم فإنه يعرف كيف يسيطر بحزم على الوقائع السياسية بشجاعة نـــادرة. فقـــد نـــادى بتطوير مستوى التعليم والثقافة للشرائح الاجتماعية المضطلعه بإدارة البـــلاد فـــى مصر. كما اهتم برفع المستوى الأخلاقى والمادى لشعبه. ويحاول الآن جـــاهداً أن يمنع تلك الانفجارات الشعبية التى تغذيها الديماجوجية. والتـــى أدت إلـــى وقـــوع الاحتلال الإنجليزي لمصر فى عام ١٨٨٢. والتى أدت أيضاً فـــى لحظـــة ليســـت بالبعيدة إلى ضياع السودان فعلياً من مصر وضياع السودان يعنـــى للمصريـــن أن يصبح مفتاح النيل فى يد الإنجليز ربما يعنى التخلى عن استقلال مصر الاقتصادى.